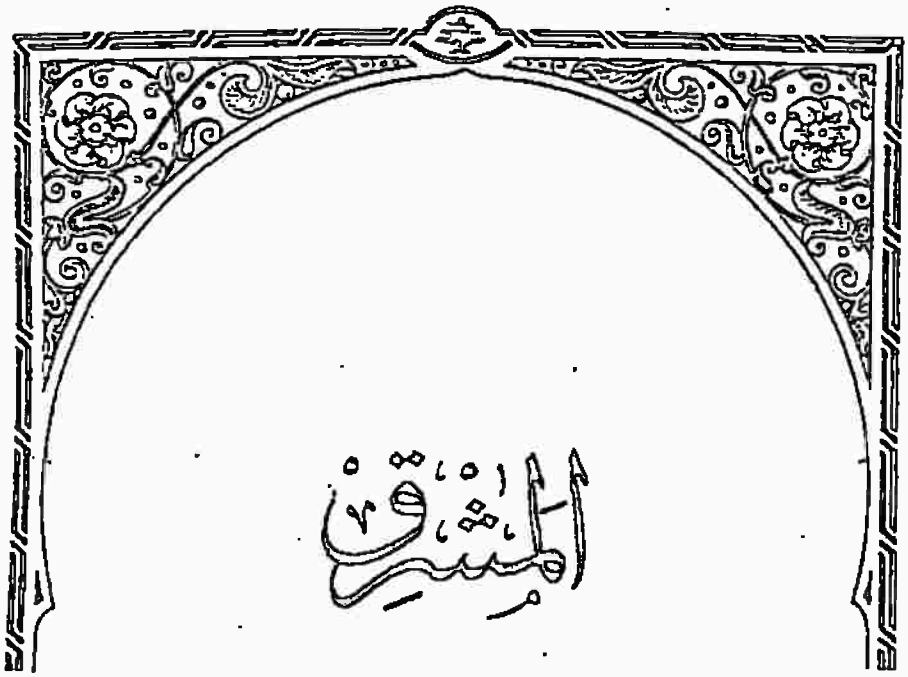

السنة الثالثة والستون — تشرين الثاني — كانون الاول ١٩٦٩

امير شعراء المهجر

ايليا ابو ماضي

١٨٨٩ — ١٩٥٧

بقلم جرجي ابرهيم نصر

بين الشعراء من هم ناشيرو المثل العليا، وحاملو ألوية الجمال، ونافخو روح الحياة في الأمم، وموفّرو الغذاء الروحي للنفوس، مترجمو العواطف، ورسل السماء الى الأرض.

والشاعر ابو ماضي من اولئك الشعراء الملهمين الذين رتّلوا أناشيد المجد على قيثارة الحياة؛ فأبدع في ما تخيّله وتصوّره ونظّمه باسلوب رائع فتّان.

وقد كتب عنه كثيرون من الأدباء المحقّقين والمعجبين به ونشروا دراسات وأبحاثاً دقيقة حلّلوا فيها عمق تصويره، وحسن ذوقه، وسعة أفقه، وشعوره المرهف، وموهبته الخلاقة، وأثبتوا أنّ قصائده أحدثت في الأندية

والمجتمعات الأدبية دوياً استيقظ فيه الشعر من سباته العميق واستعاد ذلك الرونق الزاهي الذي تألق نوره . وأضاء بلاد العرب حقبةً من الزمن ، ورد لها مجدها العريق .

وقد ألمّ بعضهم بنواحٍ كثيرة من أدب هذا اللبناني وغاب عنهم تاريخ ميلاده . فتركوه دون تحقيق ولا تدقيق : وجعلوه متأرجحاً بين سنة ١٨٨٩ وبين سنة ١٨٩٥ .

ويطيب لنا قبل أن نأتي على تاريخ ميلاد الشاعر ونشأته أن نكتب كلمةً عن تاريخ بلدته الحيدثة . هذه البلدة الجميلة الرابضة على كتف بكفيا التي أنجبت في كل عصر من عصور تاريخها الحميد نخبة علماء محققين ، وشعراء مجيدين ، ونوّاب جريئين ، واطباء نابغين ومهندسين قديرين وصحافيين لامعين ، حلّوا جيدها بجيد لبنان بعقود من العزّ والفخر .

الحيدثة : لؤلؤة في عقد لبنان تتبع شرقي بكفيا ولا ينفصلها عنها سوى مجرى ماء شتوي يدعى : « ساقية الحيدثة » وتعلو معبا عن سطح البحر حوالى ٩٥٠ متراً : اشتهر أهلها بحدة الذكاء . وسرعة الخاطر . وأغلبهم ينشدون الشعر العامي (الزجل) فيهم لا يتركون مناسبة تمرّ دون أن يتباروا فيها بأزجالهم . ومن تقاليدهم العريقة : انهم في كل سنة يحضرون حفلة اثنين الباعوث في دير مار الياس شويا : ويقضون فترة النهار في محلّة « المنابع » التي هي عين ماء . أمامها ساحة كانت في الماضي مغنى يقع تحت صنوبر الشوير للجهة الشمالية .

ومن عوائدهم اقتناء الطيور الداجنة والصائحة والمغرّدة : كعصافير الحسّون ، والبلبل ، والكنار ، لسماع تغاريدها وأنغامها الشجية التي تنطلق من أفواهها بألسنة متنوّعة ولغات متعددة وتترنّم بها من سحر كل يوم الى مسائه . ومن غريب ما يُروى عنها : ان المرحوم ميخائيل العقل ، توصّل في الماضي الى تعليم كناره ما يذكر بالنشيد الخديوي .

ولهم ايضاً ميل خاص الى التقاط العصافير حيّة بواسطة قفصان من « الدبق » في فصل الخريف ، وقد دأب شبّانها منذ القدم على بناء « العرازيل » وقضاء فترة الصيف فيها ، « والعرزال » يشبه غرفة مرتفعة تقام في وسط شجرة أو شجرتين متلاصقتين ، ويُعدّ للراحة والمنامة والأكل ، وتوفّر فيه جميع أسباب الراحة والهدوء ، ويُرقى اليه بسلّم من الخشب . و « عرزال » الحيدثة : يختلفُ عن باقي « العرازيل » : من جهة الاتقان ،

أو الموقع ؛ إذ يحرص صاحبه على تشييده بين الأشجار الطبيعية ؛ وتغطية جوانبه وسقفه باللزّان (الوزّال) والعنصل (الملّول) حتى ان بعضهم يقيمون « العرزال » في وسط شجرة واحدة . ولا تزال هذه العادة متبعة لدى الكثيرين حتى اليوم . وفي شرقي الحيدثة تقع عين ماء تظلّلها غابة كثيفة جميلة من أشجار الدلب . ويطلّ عليها من الشرق شير رائع يدعى (شير عرب) يقف بجانب منظر حسّين البعيد .

ومحلّة الدلب ؛ هي البقعة المفضّلة لدى أبناء هذه البلدة . ولذلك يغشونها يومياً طلباً للراحة والتمتّع بمناظرها الساحرة . ويحبّون بنوع خاص أن يسيروا على طريقها في الليالي المقمرة ويناجوا البلك وما فيه من كواكب ونجوم . ويقول المغالون منهم : « كل الأقمار جميلة ؛ لكن قمر عين الدلب اكثرها جمالا » .

وفي هذه المحلّة ايضاً ؛ عين ثانية تسمّى : عين الفوقا ، ويعتقد الأهلون ؛ أنّ من يشرب من ماء هذه العين يصير ذكياً ، أو يزداد ذكاء إن كان من الأذكياء .

وكان ايليا أبو ماضي كغيره من الشبان ؛ يقضي الساعات الطوال في هذه البقعة المختارة ؛ يناجي فيها الطبيعة ؛ ويستلهم الوحي والخيال تحت ظلال اشجارها الباسقة .

وحينما جاء الى لبنان ١٩٤٨ زار بلدته ؛ وذهب الى هذه العين وشرب من مياهها . ومياه عين الدلب ؛ واستعاد ذكريات الطفولة والصبا ؛ وشخص الى زيارة بيته القديم الذي كانت تقوم الى جانبه شجرة تين باسقة طالما تسلّق اغصانها وهو صغير ؛ ولكنه مني بالخيبة والفشل ؛ اذ تبين له ؛ ان بستاناً من التفاح ؛ وفسحة بناية لآل اندراوس ، أقيما مقام ذلك البيت وتلك الشجرة .

وقد جاء ذكر الحيدثة في الصفحة ١٦٨ من كتاب تقويم بكفيا الكبرى وتاريخ أسرها المطبوع ١٩٣٥ والموضوع بقلم المؤرخ المعروف الشيخ ادمون بليبل ، فالخّصه بما يلي :

« الحيدثة تصغير حدثة ، وهي لفظة عربية معناها المنشأة حديثاً ؛ والشائع انه كان يوجد قبلها وفي شرقيها القريب منها ، مكان عامر يدعى : وطا الجوانزة وقد قضي عليه ، كما قضي على جواره بعد انسحاب الصليبيين من هذه البلاد ؛ وفي خلال سنة ١٥٤٥ وما بعدها ؛ عاد سكان بكفيا

الأقدمون : فجددوا بناء بلدتهم وضواحيها وتقدموا رويداً رويداً في العلوم والصناعة والتجارة الخ.. » ووردت أخبار مشاهيرهم بتفصيل مع نبذة عن أصل أسرة كل منهم .

وفي هذا الصدد قال العلامة المؤرخ المرحوم مواطني الخوراستف يعقوب غانم البكاسيني (١٨٤٨–١٩٠٩) وروى في كراس مخطوط ما أنقله بحرفيته :

« الخيثي أو الخيدثة – شمالي بكفيا – أي مُحدثة من بعد عمارة بكفيا من الأمير كيفا ابن الأمير سمعان حاكم بسكنتا من بني عبدون المارنة عدد نفوسها (١٥٠) من الروم الأرثوذكس » .

وما يلفت الانتباه في هذا القول . هو ان الخيدثة : لا تقع في الجهة الشمالية من بكفيا : بل في الجهة الشرقية : وعدد سكانها اليوم يبلغ حوالى الف نفس : واللغة العربية لم تكن منتشرة بين سكان القرى الجبلية في عهد امراء المردة .

بعض نوابغ الخيدثة : وقد انجبت الخيدثة في مختلف عصورها . طائفة كبيرة من الأدباء والشعراء . أذكر من اسمائهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ ابرهيم المنذر وولده صلاح ، وابن شقيقه أسعد ، ويوسف نكد ، وأديب مظهر ، والدكتورين اسكندر بك رزق‌الله واسعد العنيش ، والياس حسّون المعلوف : ومراد وايليا ابي ماضي .

ومن احيائهم اكتفي بذكر اسم الاستاذ ميشال بشير الذي طبع ديوان شعر في بيروت سنة ١٩٤٧ : وسمّاه : « الغروب » . فداعبه الشاعر ابوماضي وقال له : لماذا اخترت لديوانك اسم « الغروب » : وكان الأولى بك ان تسميه : « الشروق » ؟

وأشير الى ان البارزين بينهم في الأدب والشعر : وفي الطبّ : والحقوق ، والهندسة : والتجارة والصناعة والزراعة ، ومختلف الفنون عديدون يصعب احصاؤهم : ويطول البحث بتعداد اسمائهم .

مولد الشاعر : تضاربت الأقوال : واختلفت الآراء حول تاريخ ولادة الشاعر ، الذي اكتبُ عنه هذا البحث ، وكثر اللغط والتأويل فيه : حتى أصبح من المستحيل معرفة حقيقته : ولذلك ذهبتُ خصيصاً الى بكفيا للتفتيش في سجلات دائرة النفوس باذن خاص من مواطنه المدير العام للاحصاء والأحوال الشخصية يومئذٍ السيد بديع ابن الشيخ ابرهيم المنذر ، فتبين لي من قيود

احصاء المهاجرين العائدة الى سنة ١٩٢٤ ، انه وُلد سنة ١٨٩٢ وأن والديه هما : ضاهر ايليا ابي ماضي وسلمى اسكندر . الآتي ذكرهما وذكر أولادهما بتفصيل ضمن رسالة خاصة بعث بها اليّ مختار بلدتهما .

ولما كانت هذه القيود صورية ، لا يُركن اليها ولا يوثق بها ، قصدتُ أن أراجع سجلات العماد في كنيسة الحيدثة ، ولكن خاب ظني حينما بلغني انها حديثة ، وعهدها يعود الى سنوات قليلة . ولذلك استعضت عنها بمقابلة بعض الشيوخ والمقرّبين ، لأخذ العلم من أفواههم ، فأفادوا ان الشاعر هو من مواليد ١٨٨٩ .

ثم قابلتُ ابن خاله السيد حنا قبلان جرجس اسكندر المولود ١٨٩٤ فأفادني ان ابن عمته ايليا أكبر منه سناً ويظنّ انه من مواليد ١٨٨٩ .

ولزيادة التأكيد واصلتُ البحثَ والاستعلام ، وتوخّيتُ بنوع خاص معرفة الحقيقة المقصودة ، وازالة الغموض عنها ، فاجتمعتُ بشيوخ الحيدثة المقيمين في بيروت ، وبعلما أطلعتهم على قصدي ، أكّدوا لي ، ان الشاعر ايليا ابي ماضي وُلد ١٨٨٩ بعد شقيقه مراد بسنتين اثنتين .

ثم كتبتُ رسالةً الى الدكتور فؤاد العقل في نيويورك لعلمي بأنه صديق الشاعر وابن بلدته ، فتكرّم برسالة مكتوبة باللغة الانكليزية أوضح فيها ، ان الشاعر أبا ماضي ولد في الحيدثة في ١٥ ايار ١٨٩٥ .

وممّا ذكرته مجلة « الأرثوذكسية » الصادرة في مرجعيون في عددها ٨ و ٩ سنة ١٩٥٧ نقلاً عن جريدة « الجريدة » ، انه وُلد في ١٥ ايار ١٨٩٤ .

وأنا أعتقد ان الفريقين أصابا الحقيقة في ما يختص بتحديد تاريخ اليوم والشهر ، وأخطأ بتحديد السنة فقط .

وبالاعتماد على المعلومات الواضحة والشهادات الثابتة الواردة في هذا المقال ، والمبنيّة على أقوال المؤرّخ الشيخ ادمون بليبل في كتابه السابق الذكر ، وافادات شقيق الشاعر وابن خاله ومختار بلدته وشيوخها ، أثبت إثباتاً قاطعاً جازماً لا يقبل الردّ ، ولا التعليل ، ان الشاعر ايليا أبي ماضي ولد في الحيدثة في ١٥ ايار ١٨٨٩ وغاب عن الوجود في بزوكلن يوم السبت ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٧ .

واني أحيطُ القرّاء علماً بأن مختار الحيدثة السيد طانيوس حداد ، كان قد وعدني بجمع المعلومات التي تتعلّق بالشاعر وأسرته ، وأفيدهم انه

قد برَّ بوعده ، وتكرَّم بالرسالة التي أثبتها في ما يلي . مع ابداء شكري له على غيرته الوطنية . وتقديره للرجال العاملين المخلصين من ابناء وطنه . وهذا نصّها :

حضرة السيد جرجي نصر المحترم

تحية واحتراماً . استلمتُ كتابكم وبه تذكّروني بما وعدتكم به سابقاً ، وسبب التأخير هو الاستقصاء ، لاستقاء معلومات صحيحة ، من مصادر ثقة ، عن نسب ونشأة شاعرنا الكبير المرحوم ايليا أبي ماضي ، وقد تيسّر لي الآن معرفة ما هو قريب من الحقيقة ، إن لم يكن الحقيقة بعينها ، وسأورده لكم مفصلاً .

إن والد صاحب الترجمة يدعى ضاهر ايليّا بن طانيوس أبي ماضي من المحيدثة . والدته تدعى قرنفلة (لم نعلم ابنة من) وهو من مواليد المحيدثة ١٨٥٤ وله أخ يُدعى نعوم مولود في المحيدثة ١٨٦٤ هاجر الى الاسكندرية بخلال ١٩٠٠ وتوفي فيها . وله ايضاً أخت تزوجت من المدعو شعيا الحداد من قرية عين الصفصاف في قضاء المتن الشمالي ، توفيت بدون عقب . وان ضاهر المذكور والد الشاعر ايليا ، كان متزوجاً من المدعوة سلمى ابنة جرجس اسكندر من المحيدثة ، وقد رُزق منها خمسة ذكور ، وانثى واحدة تدعى « جنى » وهذه تزوّجت من أحد ابناء طليا في البقاع ولم تُرزق أولاداً ، وتوفيت بخلال الحرب الكبرى ، أمّا أولاده الخمسة الذكور فهم : مراد ، ايليّا ، متري ، طانيوس ، وابرهيم .

١ً — مراد مولود في المحيدثة ١٨٨٧ متزوّج وليس له عقب وقد توفي في اميركا بعد وفاة شقيقه ايليا بمدة قصيرة . ٢ً — ايليا مولود في المحيدثة ١٨٨٩ . متزوّج من المدعوة « دورثي » وقد أنجب منها ثلاثة ذكور وهم : رتشارد ، ادوارد ، وروبرت ، والزوجة والأولاد أحياء يرزقون ومقيمون في بروكلن . وقد توفي ايليا هناك بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٧ وله من العمر ثمانية وستون عاماً . ٣ً — متري توفي في اميركا (لم نعلم تاريخ وفاته) ٤ً — طانيوس توفي في الاسكندرية بخلال ١٩١٠ ٥ً — ابرهيم توفي في المحيدثة بخلال الحرب الكبرى ، وهؤلاء الثلاثة الأخيرون غير متزوّجين .

والوالد ضاهر توفي في المحيدثة بخلال ١٩٣٠ وله من العمر ستة وسبعون عاماً .

وان نابغتنا المرحوم ايليّا نشأ وترعرع في مسقط رأسه الخيدثة ؛ وكان ذكياً ؛ متوقّد الذهن منذ الطفولة . مولعاً بالزجل اللبناني ؛ معنّى وقرّادي» وقد نظّمه وهو ابن عشر سنوات . تعلّم العلوم الابتدائية في مدرسة القرية ؛ ثم سافر الى الاسكندرية بخلال ١٩٠٠ ؛ ومكث فيها الى ان سافر الى الولايات المتحدة الأميركية بخلال ١٩١١ وبقي فيها لحين وفاته .

وفي سنة ١٩٤٨ زار وطنه لبنان للمرّة الأولى والأخيرة بعد هجرته ؛ فأقيمت له حفلة تكريمية في بلدته الخيدثة يوم الأحد في ١٤ تشرين الثاني ١٩٤٨ .

هذه أصدق المعلومات التي استقيتها بالاضافة الى معلوماتي الشخصية ؛ راجياً ذكر اسمي وموافاتي بعدد من المجلة التي ستنشرون مقالتكم فيها ؛ ولكم جزيل الشكر ؛ أدام الله خيّركم .

٢٣ — ٣ — ١٩٦٦ مختار الخيدثة

طانيوس حداد

نشأة الشاعر : ولمّا كان لا بد لي من تسليط الأضواء الكاشفة على نشأة الشاعر ، واقتباسه العلوم ، فقد تبين لي من المصادر الموثوق بصحتها انه وشقيقه الأكبر مراد قد تلقّنا مبادئ اللغة العربيـــة على أصولها في صغرهما ؛ على مواطنهما المربّي القدير والوطني الكبير الشاعر الناثر الشيخ ابرهيم المنذر (١٨٧٥—١٩٥٠) .

وكان الطالبان متفوّقين في علومها ومواظبتها على الدروس ، وقدوةً صالحةً لكافة التلامذة ، ثم تابعا دراستهما في مدرسة الآباء اليسوعيين في بكفيّا ، وكانا أثناء العطلة المدرسية يتردّدان على بعض الحوانيت في قريتهما ، ويتصفّحان ما فيها من كتب الأدب والشعر ؛ ويغترفان منها ما لذّ وطاب .

وكان والدهما ميسوراً في قريته ؛ وصاحب أنوال لحياكة نسيج الديما ، التي كانت رائجة في عصره ؛ وبذل في تثقيف أبنائه كل ما في وسعه ، وأنشد كثيراً من الشعر العامي في كثير من المناسبات .

وكان ايليّا في صغره ، ينظم الزجل كما تقدم ، ويشترك مع أخيه مراد في قنص الطيور ، وقضاء الساعات الطوال في « صلاية » قصبان الدبق ، لالتقاط العصافير ، وانشاء المعازيل بين الأشجار الغضّة الباسقة ، ويسرح كلاهما في الحقول والبساتين الخضراء ، والسهول المترامية الأطراف ، والغابات

الكثيفة . والأودية السحيقة . والجبال الشاهقة . ويتزوّدان ببعض حبوب من الزيتون مع التين المجفوف . ويعودان بعد جولة طويلة مزوّدين بغنائمها من الصيد والتبر .

هجرته : في أوائل اجيال العشرين : كان كابوس الظلم والتعسّف العثماني . متسلّطاً على رقاب اللبنانيين الذين كانوا يرزحون تحت وطأة نير العبودية . ولذلك أخذوا يهاجرون زرافات ووحداناً الى أقاصي المعمور . سعياً وراء الرزق ، واستنشاق هواء الحرّية . فانتشروا تحت كل كوكب .

وكان الشاعر أبو ماضي طموحاً وذا نفس أبيّة : فارتأى أن يهجر وطنه وينتقل منه إلى بلد آخر . يرى فيه نور الحرية والحياة . وكان خاله قبلان جرجس طانيوس اسكندر . يتعاطى التجارة في الاسكندرية ويصطاف غالباً في لبنان . وبحكم وضعه . ومقتضى عمله : أخذ بمعيّته ابن شقيقته مراد . شقيق الشاعر . وهذا سيأتي لأخيه بعد مدة محدودة : طرق الالتحاق به . وأقنعه بفائدة العمل معه هناك : فاقتنع وسافر في صيف ١٩٠١ . وفي الاسكندرية تابع الأخوان دراستهما على أحد الشيوخ المتخرّجين في الأزهر . فتلقّنا أصول اللغة العربية : والصرف والنحو والبيان والعروض . ثم سافر مراد الى الولايات المتحدة الاميركية : وبقي ايليا يساعد خاله في عمله . وكان يطالع ويدرس في أوقات الفراغ ، ويتضلّع بما كان يتلقّاه على نفسه وعلى غيره من الأدباء : ويهتمّ بالشعر الفصيح : الذي مال الى قرضه والتعمّق بأصوله ، وأخذ ينشر بعض قصائده : ويوزّعها على معارفه وأصدقائه الذين تنبّأوا له بمستقبل زاهر ، ونشر منها باقة في مجموعة سمّاها « تذكار الماضي » .

ثم حنّ حنيناً شديداً الى أخيه في نيويورك ، وتلقّى دعوة منه للسفر اليه ، لكنه فضّل أولاً زيارة وطنه : فزاره في صيف ١٩١١ وقضى بين أهله فترةً قصيرةً : استعاد فيها ذكرياته القديمة ، ورأى أن لبنان لا يزال مكبّلاً بالقيود ، والأغلال ، والسيطرة العثمانية ، فحزنت نفسه ، وثارت في صدره : موجة من النقمة والألم : ونظم قصيدة جارحة : تعرّض فيها للسياسة الغاشمة التي كانت الدولة التركية تنهجها إزاء بلاده ، وانتقد أساليب الحكم ، وفساد الادارة ، وخلل جهاز الحكومة ، وعرضها على استاذه الشيخ ابرهيم المنذر ، فنقّحها وهذّبها ، وأشار اليه بالسفر الى خارج البلاد فور القائها ، لئلا يتعرّض بسببها للملاحقة والاعتقال والسجن . أما عنوان تلك القصيدة فكان « الوداع » ومطلعها :

وحكومة ما إن تزحزحُ أحمقاً عن رأسها . حتى تولّي أحمقا

وبعد أن القى الشاعر قصيدته في احدى المناسبات : وهاجم السلطات والأوضاع الشاذة التي كان الوطن يعيش فيها . ودّع أهله وذويه . وسافر حارباً الى الولايات المتحدة الاميركية للالتحاق بأخيه مراد .

وفي تلك البلاد تعاطى التجارة مع أخيه مدة من الزمن . ثم انصرف الى الأدب وانشاء الجرائد والمجلات : وتولّى الدفاع عن قضايا لبنان والبلاد العربية بما أوتيه من قوّة وجرأة . وكانت نفسه قد تفتّحت وتدفّقت بالصور الشعرية الرائعة على مختلف ألوانها وأشكالها : فأصبح بفضل قصائده الخالدة : في طليعة روّاد النهضة الفكرية في المهجر : وامتدت شهرته الى مختلف أنحاء لبنان والعالم العربي .

حنينه الى وطنه : كان الحنين يُراود أحلام الشاعر ، ويوجّهه الى وطنه يسرح خياله ، بما كان يبعث به في قصائده من الزفرات الحارّة : ويشّه من الشوق الدفين : الطافح بالشعور الأليم : نحو الديار والأهل والأحباب : خصوصاً بعد أن نال لبنان استقلاله التامّ : وانكشفت عنه تلك الغمامة السوداء .

وكانت نسيبته الآنسة ملفينا ابنة اخت الياس أبي ماضي ، تتلقّى منه من حين الى آخر ، رسائل متضمّنة فرط حنينه ، وألطف ذكرياته : مع إظهار مرارة الشكوى مما يقلبه وصدره من لوعة وجوى ، بعد أن زاده البعاد شوقاً الى تلك المغاني والمغاتن . وهي تأسف لفقد إحدى رسائله التي استعارها منها السيد عفيف نايف حاطوم من كفرسلوان ولم يعدها اليها ، ما زالت تحتفظ منها بمقطع مؤثر جاء فيه قوله : . .

« يجب أن ننظرَ الى الوجه الأجمل في الحياة ، كانت لي أخت (جنى) فأحسبك عنها بديلاً . وكان لك أخ (الياس) فاحسبني بديلاً عنه » .

وقد أهدى اليها في ١٨ ت ٢ ١٩٤٨ ديوان « الخمائل » وضمّنه في الصفحة ٦٢ رثاء والده .

وكانت تتلقى رسائل من أخيه مراد ، تعبّر عمّا يجيش في نفسه من مرارة وأسى ، بعد أن فجعه الدهر بأخيه الذي كان يؤنسه في غربته ووحشته ، فأصبح وحيداً حزيناً يتوه بألم الغربة .

وفي خلال ١٩٦٠ راسلها من (ميامي) وأهداها بتقدمة ديوان أخيه « تبر وتراب » الذي صدر بعد وفاته وتوجّه بالعبارة التالية :

عربون المحبة الدائمة وذكرى الشاعر الغائب — الى النسيبة الأديبة ملفينا أبي ماضي . مع تحيّة شقيق الشاعر — مراد أبي ماضي .

وصحّح في آخر الكتاب بخطّه تاريخ ولادة أخيه وحوّله من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٨٨٩ كما صحّح عبارة : نشر أبو ماضي في حياته ديوانين : بكلمة أربعة دواوين .

وفي سنة ١٩٥٧ تلقّتْ منه ديوانه « السنابل » المطبوع في مدينة نيويورك ١٩٥٢ وهو متزّج بهذه الكلمة :

الى اخت الروح النسيبة العزيزة ملفينا ابو ماضي : للذكرى من المحبّ الثاني مراد أبو ماضي .

أحوال والديه واخوته : اشتدّ الضيق ، وانتشرت المجاعة بين اللبنانيين في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤—١٩١٨) وما استطاع الشاعر أن يمدّ يد المساعدة الى أهله بسبب انقطاع المواصلات بين الولايات المتحدة ولبنان . فانتقل والداه : طاهر وسلمى وولداهما : ابرهيم وجنى : من المحيدثة الى زحلة : ومنها الى قرية طليا في البقاع ، بناء على دعوة نسيبهم الشيخ ابرهيم خليل اللقّة ، فتوفّرتْ لهم هناك سبل الإرتزاق : وابتعدت عنهم أسباب الشقاء .

ثم ارتحل ولدهما الآخر : ابرهيم مع بعض أبناء بكفيا والمحيدثة الى طرطوس : للعمل المثمر والكسب الأوفر . فاعتلّت صحّته بسبب رداءة المناخ ، والافتقار الى وسائل الوقاية والاحتراز ، وخسر حياته بعد مدة وجيزة ، وعرّض أهله للحزن الشديد والأسى العميق .

أمّا شقيقته « جنى » التي عُرفت أيضاً باسم « ادجني » فقد تعاطت مهنة الخياطة ، واقترنت ١٩١٨ بالشاب : ابرهيم ثمر الخوري نعيمه من قرية قوسايا البقاع ، وأسكنت والديها معها ، وما لبثتْ أن توفيت في السنة التالية . وعلى أثر وفاتها عاد الوالدان الى المحيدثة ، وسافرا بعدئذ الى نيويورك ، واجتمعا مع ابنيهما ، وانتهى الاجتماع برجوع الأب وحده الى مسقط رأسه ووفاته فيه ، ثم بوفاة الأم عند ولديها .

رأي في شعر أبي ماضي : لقد اجتمعت مرةً مع صديقي الشاعر الكبير الاستاذ محمد كامل شعيب العاملي ، وسألته عن مبلغ معرفته بالاستاذ ايليا ابي ماضي وعن رأيه في شعره ، ومنزلته في عالم الأدب ، فاجاب :

كان بدء مراسلة أدبية بيننا يعود الى عام ١٩٢٤ وكنتُ يومئذ استاذ الأدب العربي والفلسفة في كليّة الثلاثة أقمار ، وكلية الاناث الأهلية لماري كسّاب ، وكنتُ ألقي المحاضرات على الصفّين المنتهيين بتكليف من الأديبة الشهيرة المرحومة مريم زكّا ، وكان جبران خليل جبران ، قد أصدر ديواناً شعرياً صغيراً أسماه « المواكب » وصادف ان السيدة ماري يني صاحبة مجلة (ميزرفا) قد أقامت ذات ليلة ، حفلة تكريم للعلامة أحمد زكي باشا الذي كان يومئذ ضيف لبنان ، وقد جمعت الحفلة رهطاً من كبار الأدباء، فارتجلتُ فيها قصيدة نشرتها يومئذ مجلة (الأحرار المصوّرة) التي كان يصدرها جبران تويني وخليل كسيب وسعيد صيّاغه مطلعها :

قالوا القريضَ قتلتُ طال صدودي ... قد لا أجيدُ صناعةَ التغريد
الشعرُ منبعثُ الشعور يزجّهُ ... ذلقُ النشيد ولاتَ حين نشيد
ماذا أقول لأحمدٍ إن قال لي ... إنَّ البعيدَ لديكَ غيرُ بعيد

وفي هذه الحفلة جرى ذكر مواكب جبران ، فكان رأيي فيه ، بأنَّ الديوان ليس بذي قيمة أدبية تُذكر ، فدفعتْه إليَّ صاحبة المجلة تسألني رأيي فيه بالمجلّة ذاتها ، فلبّيتُ الرغبة ، ويظهر أنَّ الردَّ كان قاسياً بنظر ايليا أبي ماضي ، فكتب اليَّ كتاباً يرغب به اليَّ تلطيف لهجتي «بالمواكب» ولا أزال أذكر من كتابه هذه العبارة :

« ان الشاعر قد يُنظر اليه بعين أديب ، بغير المنظار الذي ينظره اليه أديب آخر ، وانَّ مواكب جبران ، وان كانت بنظرك ليست بذات قيمة أدبية ، فهي بعيني على العكس من ذلك الى حد بعيد » .

ويأتي في مستهلّ الرسالة على ذكريات أيام صباه في لبنان ، ويختمها بالشوق والحنين الى العودة ، ورؤية الأهل والوطن .

ثم جاء ايليا أبو ماضي لبنان عام ١٩٤٨ وهي الزيارة الأولى والأخيرة، ولم أكن أعلم أنه حلَّ ضيفاً في اوتيل ريجنت ، ولكن اتفق لي انني كنت مدعوّاً مع الصديق قبلان عيسى الخوري والشيخ حبيب جمجم شقيق النائب السابق وهيب جمجم ، فأنتُ بلقاء الشاعر هناك . ويظهر أن صاحب « الريجنت » قد نبّهه اليَّ على المائدة ، فحرص أن يفرغ من طعامه قبلي ، ليأخذ بتلابيبي في الصالون قبل أن تغادر الأوتيل ، فاجتمعنا وكانت جلسة طويلة لا تقلّ عن ساعتين ، استعرضنا بها أموراً أدبية متنوّعة ،

وكان لم يتلُ قصيدته الرائعة التي أعدّها لدمشق . فشاء أن يطلعني عليها كأنه خشي أن يكون هناك مأخذ على بيت أو بيتين أو غير ذلك ليستدركها : لأن الذي لاحظته : ان ايليا أبي ماضي : كالياس فرحات . شاعران بالفطرة أكثر منهما لغويان متمكّنان في أصول اللغة : بعكس الشاعر القرويّ الذي دفّني الاجتماع به . على أنّه كالأستاذ بولس غانم . عليم بالمفردات . وقواعد اللغة . وبالفعل أبديتُ لايليّا أبي ماضي عدة ملاحظات على بعض ألفاظ وأبيات . تلقّاها برحابة صدر ، وطيبة خاطر . وعمد فوراً الى تبديلها على النحو الذي أشرت عليه به ، خلا بيت واحد : فانّه رغب إليّ ان يحتفظ بوضعه .

وايليا أبو ماضي كما بدا لي : شاعر خلوق : بعيد عن التصنّع . وعن الفطرسة والغرور . يتكلم بلهجة متزنة هادئة : ويفرض على جليسه احترامه . لأنه لا أثر للكلفة والتصنّع والزهو والكبرياء في سماته وصفاته . وهو يعتزّ كثيراً بالشعر الذي يصف به أيام طفولته : والتسلّق في الأودية : وعلى ضفاف الغدران : وبين المنعطفات والظلال التي كانت ترتسم أمام مخيلته في المهاجر . فتعيد اليه ذكرى الشوق والحنين : فتجري على نثنات قلمه : وأسلات لسانه . فهو كان يتحدث كثيراً : مثلاً عن قصيدته « أنا » التي يصف بها طفولته ومسارحه مع أترابه في الحقول : أيام كان في وطنه : مع أنها لا تجيء في الطبقة الأولى من شعره : ولكنها كانت تستثير عاطفته على قاعدة :

« من أحبّ شيئاً اكثر من ذكره » وهل أحبّ الى قلب الإنسان من أهله ووطنه اذا كان بعيداً عنهما ، وقد طال المطال : وبعُد المجال ؟

أمّا قصيدته في دمشق : فقد رفعته الى مستوى شوقي وبعض الشعراء الذين لا يتجاوزون عدد أصابع الكفّ الواحدة أو الكفين من فحول الشعر العربي في النهضة الأخيرة » .

ومما يجدر ذكره في هذا المجال : ان العلامة الشهير الأب انستاس الكرملي ردّ مرّةً على سؤال وجهه اليه صديقه الحميم الشيخ ادمون بليبل : فقال :

أمراء الشعر العربي أربعة : أحمد شوقي في مصر ، وصدقي الزهاوي في العراق ، وبشاره الخوري في لبنان ، وايليا ابو ماضي في المهجر .

النهاية : سبقت الاشارة الى أنّ الشاعر جاء لبنان وزار بلدته ١٩٤٨ وأذكر الآن لزيادة الايضاح : انه لبّى يومذاك دعوة الحكومة اللبنانية لمناسبة انعقاد مؤتمر الأونسكو في بيروت . وان أهالي الضيعة . اغتنموا تلك الفرصة : فاستقبلوه استقبالاً حافلاً وأقاموا له — كما سبق وقال مختار بلدتهم — حفلة تكريمية زاهرة . تجلّت فيها مظاهر الإجلال والاحترام ومشاعر الاكبار والافتخار .

وفيما كانوا يلحّون عليه بالبقاء بينهم ، اكتفى بقضاء مدة وجيزة في لبنان . ورغم انه كان يتمنى أن ترقد عظامه بعد وفاته ، وتستريح الى الأبد تحت ثرى الوطن الذي أبصر فيه النور ، عاد الى الولايات المتحدة ، وفي نفسه شوق ، وبقلبه غصّة : وظلّ هناك يذكر لمواطنيه المغتربين ، ما رآه في الوطن الأم من تقدّم وازدهار ، الى أن هوى في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٧ قانطفأ شعاعه ، وخبا نوره الى الأبد .

وبعدما انتشر خبر وفاته رثيته بالأبيات التالية :

حلّق النسر في الفضاء الكبير ... في رحاب النجوم فوق الأثير
ثم أهوى على الحضيض صريعاً ... تلك عقبى مغامرات النسور
عبّ من معين العلوم وأجرى ... في رياض التريض فوحَ العبير
فبكته إلاهة الشعر شجواً ... ونعته على نواح الطيور
كل غصن مرنّح ناحَ فيه ... بلبل قد أطال رجعَ الزفير
أين ذاك الهزارُ في الروض يشدو ... قد عراه ذبولُ تلك الزهور
أطربَ الطيرَ والغصونَ غناهُ ... فرثته بشعره والشعور
قد تغنّى بشعره كلُ حادٍ ... أين منه مُعتّقاتُ الخمور
أكبرتْ خطبَه البلادُ فسالتْ ... واكفاتُ الدموع مثل الغدير
يا لوحي يغيبُ عنا سناهُ ... في سطور تنزلتْ في سطور
يا حبيبَ القلوب وابن المعالي ... وملاذاً لبائس وفقير
وسليلَ الكرام من خير دوحٍ ... قد تحلّى بكل غصن نضير
لم يُغادر في روضة الشعر معنىً ... لسواه في شعره المشهور
كل بيت كنفحة الطيب يسري ... في الغدايا مضمخاً بالعطور
كلُ يومٍ للعبقرية جيل ... وشهورٌ تمرّ تلوَ الشهور

خالدُ الذكر في نتاج يراع ... ويراعُ الأديب نورُ العصور
كم توارى في القبر منا أديبٌ ... وهو حيٌّ بالذكر حتى النشور
لا يُراعي النبوغَ سيفُ المنايا ... فالوضيعُ الجهولُ مثلُ القدير
والليالي تشنّ حرباً علينا ... اين كنا فعيشُنا في كدور
يا سميرَ النجوم صغتَ القوافي ... ساطعات كشوبها المنشور
أين منها عقودُ غيد حسان ... تتدلّى على مرايا النحور
يا فقيد البلاد ما عشتَ يكفي ... خلود مُجلْبَب بالدهور
خطفتك المنونُ شيخاً وقوراً ... طاهرَ الذيل والحجى والضمير
لم تغيّب في ظُلمة القبر حتى ... كنتَ منّا مغيّباً في الصدور

وكان رحمه الله عضوًا عاملاً في الرابطة القلمية في نيويورك التي بعثت الأدب العربي في المهجر ، وقد نال عدة أوسمة وميداليات بينها وسام الأرز الوطني اللبناني ووسام الاستحقاق السوري الممتاز ووسام القبر المقدس الأرثوذكسي .

واذا كان لي من أمنية ، فهي ان تُعنى الحكومة اللبنانية بنقل رفات هذا الشاعر النابغة وأمثاله من العباقرة المهاجرين الى مهود أحلامهم ومناقط رؤوسهم ، لتستريح بقاياهم في وطن طالما أشادوا بذكره وعزّهم الحنين اليه ، وأن تقام لهم تماثيل في ساحة الأونسكو وتسمّى شوارع باسمائهم .

بكاسين (لبنان) جرجي ابرهيم نصر